اللقاء الهندسي.. عين الرضا

كنت اليوم في لقاءٍ هندسيٍّ فريد، جمع أساطنة علم الهندسة المدنية هنا، لمناقشة مستجدات أزمة العمران في ظل الحصار، وشح مواد البناء، والبدائل المقترحة للتعامل مع هكذا أمرٍ واقع، في ظل الصمت المطبق، أو التجاهل المتعمد لحصار شعب، وتقزيم قضيته!

ألهو في قلمي الرصاص في انتظار بدء المحاضرة التالية في برنامج اليوم العلمي الحافل، عندما ولجت باب القاعة هي، متأخرةٌ فاتتها محاضرة كاملة، والكل قد التزم مقعده، يسجل أو يراجع ما سجل، دخلت القاعة تسحب وراءها ساقاً معطوبة، ترتكز على عكاز تسند إليه ثقلها، وساقها تلتوي من أقصاها إلى أقصاها، فيلتوي لها الجسد بأسره، في مشهد يدمي القلب، خاصة إذا جسرت فرفعت عينيك لتبصر وجهها الملائكي ذاك..!

تتسحب جاهدة، وتركيزها منصب على ميكانيكية حركتها، حتى بلغت مقعدا قاصدا، التزمته بهدوء تام، وبجوارها أجلست رفيقها.!

زميلتي بجانبي تميل علي، وبصوت خافت تتمتم :

- أتعلمين من هذه!
- لا، أتعرفينها أنت!
- نعم نعم، إنها المهندسة فلانة، تعمل في قسم التخطيط العمراني بالبلدية.
- ما شاء الله تبارك الله
- نعم، ولو تعلمين ماذا أيضا!
- ماذا أيضا؟!
- هي عروس، لم يمض على زفافها أكثر من شهر.
- صدقا!

- أي نعم، وهل أزيدك!
- زيديني
- زوجها هو البروفيسور فلان
- البروفيسور فلان الذي نعرفه!
- نعم نعم، هو بعينه
- ضيف شرف لقائنا هذا ! هو ما غيره!
- صدِّقيني نعم.

- سبحانك ربي! تعلمين! أنا لم أره قط، مع أن كتابه"كذا "من مراجعي التي لا تفارقني.

و بابتسامةٍ ماكرة، وهي تتراجع بظهرها إلى الوراء : - - حقاً ! سترينه اليوم إذن.

مضى خيالي يسرح بي لأتكهن شكله، هذا الذي اقترن بمهندستنا تلك، بدأت أولى مراحل خيالي بلحيةٍ وسمت إلتزام، وانتهت بسنين عتيا، أكلت عافيته على مائدة جسدٍ متهالك، وأنا بين هذه الصورة – من صور الخيال – أتعجب وأحتار!

وحانت اللحظة، ليقدِّم عريفُ اللقاء البروفيسور المنتظر، والتي ما أن نطق العريف باسمه حتى تحفزت حواسنا أنا وزميلتي، وانحبست أنفاسنا، وتعلقت عينانا بباب قاعة الضيوف المشاركين!

تلاحقت أمام عيني الصور، علِّي أرى سمت الإلتزام المعهود: لحية وأخواتها، فدخل علينا الباب بلحيةٍ خفيفة، وبذلةٍ باذخةٍ أنيقة، أعتقدها "أرماني "وما شابه، فقلت: خير خير، وماذا بعد! فتعهدت مشيته علِّي أجد انحناء المناكب، أو ألحظ ارتجاف الأطراف، فأبى إلا أن يكون ذا قامةٍ فارعة، وعود منتصب، فعقدت أطرافي محتدة، ونظرت علّي أجد في وجهه ضربة سكينٍ –تنبي عن شقاوة– أو تشوهٍ ما مريع، فوجدته قسيماً وسيما، ملامحه تريح الناظرين، فقلت: الآن ما بقي إلا أن يخرج لسانه لنا، ويتساقط الزبد من شدقيه، أو لعله يعدو بيننا على أربع! ولكنه، وبكل اتزان ورسوخ خطا كملكٍ مهيب إلى أن بلغ منصة الإلقاء، فقلت: الآن الآن يخرج صوت نكير، ومنطقٌ ركيك، ولعثماتٌ وتأتأة..

فسمّى وشكر، وألقى كلمته كمن اعتاد اعتلاء المنابر، حتى قلنا: هل من مزيد!

فقلت والدهشة تعصف بي: وماذا الآن! لا تقنعونني أرجوكم!! لابد من خللٍ ما، أو لعله سر لا تطلع عليه العيون!

ملت برأسي ذات اليمين حيث استكانت هي الوادعة، فوجدت محييً ينطق بالبشر، وابتسامة لا تتبدى على الشفاه، بل سكنت العينين، فأسدلت على قسماتها شفافية تكاد الأرض تميد بك لعذوبتها، وسكينة تغشّاها ولا ترتحل !

وتحين مني التفاتةٌ إليه وهو على منصته، وحديث يعجُّ بالأرقام والمنحنيات والخرسانة والتسليح ، لتأخذني نظرة واحدة رماها بها، وكأنه أودعها روحه، لتسلم على روحها هناك، ولا تعود.

يا لله! يا لله! وتقولون جمال! أولا يحب إلا الصحيح الجميل! أوربك الرحيم كتب للسليم نصيباً من متاع الروح، وحرم منه السقيم!

الله يا ذا الجلال: فليذهب الحب الذي أتى به الجمال حيث ذهب أصحابه: قيعانٌ وطين، وليعلموا أنّ حظوة الحب التي أسمتهم عاشقين، حاز منها الجمالُ نصيباً وسبَّب، فكان حباً لا يتعدّى الجلد والقشور، إن زالت تعرَّى، ليسفر عن زيفٍ ووهم!

وأما الشاهق الجليل، الأثيريُّ الشفيف .. فإنه يسمو ويبقى، ويصول في سوح الأرواح.. ويجول!